مؤرخو الثقافة الاسلامية

للدكتور محمد خلف الله أحمد

عميد كلية الآداب بجامعة الإسكندرية

إذا كان لعلماء القرون الهجرية الأولى فضل السبق والابداع فى التأليف ، فى فروع الدراسات الاسلامية ، من قرآن وحديث وتاريخ وغيرها ، فإن لعلماء القرون المتوسطة ـ الخامس والسادس والسابع ـ فضل التوسع والتنظيم والاحاطة ، وتصنيف المراجع الواسعة التى جنت منها نهضتنا الحديثة فائدة كبيرة ، إذ أن من عوامل نجاح الباحث فى عمله أن يلم بالتراث السابق فى موضوعه ، وأن يتعرف جهود الأسلاف فيه ، وينقدها بالعين المنصفة الفاحصة ، محاولا أن يخطو بالموضوع خطوات ، يتقدم بها العلم ، ويسير بها ركب الحضارة إلى الأمام .

وقد شاركت الأقطار الإسلامية المختلفة فى عملية التوسع والتنظيم هذه ، فأطلعت حواضرها أعلاما شدت اليهم الرحال من الآفاق وعرفنا ببعضهم فيما سبق من هذه الأحاديث .

ونريد أن نستأنف هذا التطواف النافع ، وأن نقف على بعض مراكز الاشعاع العلمى وقفات كلها تبجيل وأعجاب ، وأن نقدم طلاب العلم المحدثين إلى شيوخهم من علماء الإسلام ، الذين كانوا نماذج فى الاخلاص للعلم والتوفر عليه ، والزهد فى مظاهر الدنيا من جاه أو مال .

فلنشد الرحال ـ إذن ـ إلى جزيرة « إبن عمر » قرب الموصل ، ولنختر من مراحل التاريخ نهاية القرن السادس وأوائل السابع الهجرى ، ثم لنستأذن ولنقف فى إجلال أمام بيت من بيوت المعرفة هناك ، أفاض الله عليه الحكمة وعلمه مما يشاء ونبتت فيه شجرة طيبة كل فرع فيها يعدل روضة من رياض العلوم والمعارف .

أنظر تجد أمامك إخوة ثلاثة ، نشأوا فى حجر الثقافة الإسلامية ، وانتسبوا بأسمائهم اليها . فتسمى أكبرهم « مجد الدين » والأوسط « عز الدين » والأصغر

« ضياء الدين » وكأنما تعاهد الأخوة الثلاثة على أن يشق كل منهم لنفسه طريقا يجلى فيه ، وعلى أن يؤلف فى فرعه مرجعا ينهل منه مريدو العلم طوال العصور . فأما مجد الدين فقد اختار أن يكون عالم حديث ، وأما عز الدين فقد نحا نحو التاريخ وأما ضياء الدين فقد وجد فى دراسات بلاغة القرآن والأدب بغيته وضالته .

ولقد تحدثنا عن « ضياء الدين » فى كتابه « المثل السائر » فيبين لنا كيف يربى الأديب الناشىء على ثقافة أساسها القرآن والحديث وروائع الشعر القديم ، ويدلنا على طريق الاجتهاد فى الأدب ، ويكشف لنا بالتحليل العملى عن كثير من أسرار الإعجاز والجمال فى القرآن الكريم .

فنجعل موضوعنا اليوم مع أخويه المحدث والمؤرخ ولنتبين اليد الباقية التى أسداها كل منهما إلى دراسات الإسلام .

كان « مجد الدين بن الأثير » — كما تقول تراجمه — عالما فاضلا وسيدا كاملا جمع بين علوم العربية المختلفة ، وألف فيها تآليف نافعة ، ولكن ميدانه الخاص كان الحديث : فقد صنف فيه — فيما صنف — كتاب « جامع الأصول فى أحاديث الرسول » فى عشرة مجلدات ، وكتاب « النهاية فى غريب الحديث والأثر » فى خمسة مجلدات وهذا الكتاب الأخير يعرض تاريخ التأليف فى غريب الحديث منذ أن خالط العرب غير جنسهم ، وامتزجت الألسن وتداخلت اللغات وألهم الله عز وجل جماعة من أولى المعارف ، فصرفوا إلى هذا الشأن طرفا من عنايتهم ، وعملوا على حراسة هذا العلم الشريف من الضياع ، ولم يخل منهم عصر من العصور حتى أيام المؤلف ويجدر بالطالب المتخصص أن يرجع إلى مقدمة هذا الكتاب ليتعرف فيها إلى المؤلفين السابقين من أمثال ابن عبيدة وابن سلام وابن قتيبة والخطابى والهروى والزمخشرى وأبى الفرج بن الجوزى ، وليتبين منازعهم فى مؤلفاتهم ، ليرى كيف تطورت هذه الدراسات إلى أيام مجد الدين بن الأثير .

يقول مؤلفنا : « ولما وقفت على كتابه (أى كتاب بن الجوزى) المسمى لكتاب الهروى ، وأدركت ما يعترى الباحث فيهما من مشقة ، رأيت أن أجمع ما فيهما من غريب الحديث مجرداً من غريب القرآن ، وأضيف كل كلمة إلى أختها فى بابها تسهيلا لكلفة الطلب ، ثم أدركت ما فيهما من قصور ، فتتبعت الكتب الأخرى ، واستقريت ما حضرنى منها ، واستقصيت مطالب المسانين والجاميع ، وكتب السنن

والغرائب قديمها وحديثها ، وكتب اللغة على اختلافها ، وجريت فيه على التقفية على حروف المعجم بالتزام الحرف الأول والثانى من كل كلمة ، وإتباعها بالحرف الثالث ، إلا أنى وجدت فى الحديث كلمات كثيرة فى أوائلها حروف زائدة قد بنيت الكلمة عليها حتى صارت كأنها من نفسها ، وكأن يلتبس موضعها الأصلى ، لاسيما وأكثر طلبة غريب الحديث لا يكادون يفرقون بين الأصلى والزائد ، فرأيت أن أثبتها فى باب الحرف الذى فى أولها . . ونبهت عند ذكراه على زيادته . . وأنا أسأل من وقف على كتابى هذا ورأى فيه خطأ أو خللا أن يصلحه وينبه عليه .. حائزا بذلك منى شكراً جميلا ومن الله تعالى أجراً جزيلا » .

أرأيت ياصديق إلى هذا الاستقصاء ! . . ثم أرأيت إلى تواضع العلماء كيف يكون ! . . لقد شهد له أخوه المؤرخ فى كتابه الكامل شهادة حق فقال : « وكان كاتبا مغلقا يضرب به المثل ، ذا دين متين ولزوم طريق مستقيم ، رحمه الله ورضى عنه فلما كان من محاسن الزمان ، ولعل من يقف على ماذكرته يتهمنى فى قولى ، ومن عرفه من أهل عصرنا يعلم أنى مقصر » . .

وقد كان مجد الدين مثالا لما ينبغى أن يكون عليه العالم من جلال وأباء وتحرج من ظلم الناس ، روى عنه أخوه أنه حدثه فقال : « الزمنى نور الدين صاحب الموصل بالوزارة غير مرة وأنا أستعفيه ، حتى غضب منى وأمر بالتوكل بى ، قال فجعلت أبكى ، فبلغه ذلك ، فجاءنى وأنا على تلك الحال فقال لى : أبلغ الأمر إلى هذا ماعلمت أن رجلا من خلق الله يكره ما كرهت ! . . فقلت : أنا يا مولانا رجل كبير ، وقد خدمت العلم عمرى ، واشتهر ذلك عنى فى البلاد بأسرها وأعلم أننى لو اجتهدت فى اقامه العدل بغاية جهدى ما قدرت أؤدى حقه ، ولو ظلم أكار فى ضيعة من أقصى أعمال لنسب ظلمه إلى ، ورجعت أنت وغيرك باللائمة على ، والملك لا يستقيم إلا بالتسمح فى العسف وأخذ هذا الخلق بالشدة وأنا لا أقدر على ذلك . قال : فأعفاه السلطان من الوزارة .

وبعد ـ أيها الرفيق فالحديث مع مجد الدين يطول ، وفى برنامج رحلتنا هذه أن نستمع ولو قليلا إلى الأخ المؤرخ عز الدين . وأن نتعرف مبلغ جهده فى كتابه « الكامل » ، وبذلك : نكمل فكرتنا عن هؤلاء الأخوة الثلاثة الذين ما أنجبت الليالى بمثلهم سياسة ونبلا ورياسة ، كما يقول صاحب معجم الأدباء .

لقد كان عز الدين من صغره محبا لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة ما فيها ، مائلا إلى المعارف والآداب المودعة فى مطاويها ، فلما تأملها رآها بين مطول ممل أو مختصر مخل فقد ترك الكثير منها العظيم من الحادثات ، وسود الأوراق بصغائر الأمور ، الشرقى منهم قد أخل بذكر الغرب ، والغربى قد أهمل أحوال الشرق ، فكان الطالب إذا أراد أن يطالع تاريخا احتاج إلى مجلدات كثيرة .

هكذا كان الموقف فى التأليف التاريخى كما وجده عز الدين بن الأثير ، لهذا سارع فى تأليف جامع ، وأتى فيه بالحوادث والكائنات متتابعة يتلو بعضها بعضا إلى وقته وهو يذكر بالخير والتقدير كتاب التاريخ الكبير للطبرى الذى توفى فى أوائل القرن الرابع ، إذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليه ، وقد كان صاحبه إماما متقنا حقا جامعا إلى العلم صدقا وصحة اعتقاد ، لهذا يعتمد بن الأثير عليه أولا ، فيأخذ من تراجمه وينقل أتم رواياته ، ويضيف إليها من غيرها ما ليس فيها ، ثم يتناول غير الطبرى من التواريخ المشهورة فيطالعها ، ويضيف منها إلى تاريخ الطبرى ما ليس فيه ، ويضع كل شىء منها موضعه ، إلا ما يتعلق بما جرى بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لا يضيف إلى ما ذكره الطبرى غير ما فيه زياده بيان أو اسم انسان .

وابن الأثير حريص أن يبين أنه لا يعتمد إلا التواريخ التى عرف أصحابها بصدقهم فيما نقلوه ، فهو لا يخبط فى ظلماء الليالى ، ولا يجمع الحصباء واللالى ، وقد وجد المؤرخون يذكرون الحادثة الواحدة فى سنين ، فجمع هو الحادثة فى موضع واحد وذكر كل شىء منها فى أى شهر أو سنة كانت ، وذكر فى كل سنة لكل حادثة كبيرة مشهورة ترجمة تخصها ، فأما الحوادث الصغار فإنه أفرد لجميعها ترجمة واحدة فى آخر كل سنة ، كما ذكر فى آخر كل سنة أيضا من توفى فيها من مشهورى العلماء والأعيان والفضلاء .

وهو ينعى على جماعة ممن يدعون المعرفة والدراية احتقارهم التواريخ وأعراضهم عنها ، ظنا منهم أن غاية فائدتها إنما هو القصص والأخبار . والحقيقة أن للتواريخ كما يقول — فوائد دنيوية وأخروية : منها أن الشخص إذا طالع أخبار الماضين فكأنه عاصرهم ، ومنها أن أولى الأمر والنهى إذا وقفوا على ما فيها من سيرة أهل الجور والعدوان ورأوها مدونة فى الكتب يتناقلها الناس استقبحوها وأعرضوا عنها ، وإذا رأوا سيرة العادلين استحسنوها ورغبوا فيها ، ومنها ما يحصل للانسان من التجارب والمعرفة بالحوادث ، ومنها ما يتجمل به الانسان فى المجالس والمحافل

ومنها أن من تدبر فيها زهد فى الدنيا وأعرض عنها وأقبل على التزود للاخرة .ولهذه الحكمة وردت القصص فى القرآن المجيدة إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

هذا هو مجمل منهج الكامل فى تاريخه الذى يبتدى بالخليفة وينتهى إلى آخر سنة ٦٢٨ هـ . أى سنتين قبل وفاة المؤلف . وقد عرف المستشرقون مكانة هذا الكتاب فطبعوه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، كما طبعوا للمؤلف كذلك كتابه « تاريخ الدولة الأتابكية فى الموصل » مع ترجمة فرنسية . وللمؤلف كتاب آخر معروف هو « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » .

وبعد يا صديقى — فهؤلاء هم أبناء الأثير مثل النجوم التى يسرى بها السارى فبأيهم أقتديت اهتديت ، وهذه هى كتبهم الخالدة على الزمن تشهد للفكر الإسلامى بالخصب والنماء والبركة ، وتحفز همم الأحفاد ليرودوا مجاهل العلم . ويضعو — كما وضع أسلافهم — لبنة فى بناء صرح المعارف الانسانية .